#4

طوق الحمامة

في الألفة والألاّف

تأليف

أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الأندلسي

المتوفى سنة 456 هـ

جمعه وحققه وشرحه

الدكتور عفيف نايف حاطوم

دكتوراه من جامعة عين شمس والسوربون

دار صادر

بيروت

[خبر]

وإنّي لأُخبر عنّي أنّي أَلِفتُ في أيّام صباي أُلفةَ المحبة جاريةَ نشأت في دارنا وكانت في ذلك الوقت بنتَ ستةَ عَشَرَ عاماً ؛ وكانت غايةً في حُسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخَفَرها ودماثتها ، عديمةَ الهزلِ ، منيعةَ البذل ، بديعةَ البِشْر ، مُسْبَلَةَ السِّتر ، فقيدة الذَّام ، قليلة الكلام ، مغضوضةَ البصر ، شديدة الحذر ، نقيّةً من العيوب ، دائمةَ القطوب ، كثيرةَ الوقار ، مُسْتَلَذَّةَ النِّفار ، لا توجَّهُ الأراجي نحوها ، ولا تقفُ المطامعُ عليها ، ولا مُعَرَّسَ للأمل لديها ، فوجهها خالِبُ كُلِّ القلوب ، وحالها طاردٌ مَنْ أَمَّها . تزدان في المنع والبخل ، ما لا يزدان غيرها بالسماحةِ والبذل ، مَوْقُوفةٌ على الجدّ في أمرها غير راغبة في اللهو ، على أنها كانت تحسنُ العُوْدَ إحساناً جيداً ، فجنحتُ إليها وأحببتها حبّاً مفرطاً شديداً ، فسعيتُ عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمةٍ وأسمعَ من فيها لفظةً ، غيرَ ما يقعُ في الحديث الظاهر إلى كلّ سامع ، بأبلغِ السعي فما وصلتُ من ذلك إلى شيءٍ البَتَّةَ .

فلَعَهدي المَصْنَعَةُ[1] كانت في دارنا لبعض ما يُصْطَنَعُ[2] له في دور الرؤساء تجمَّعَتْ فيه دخلتنا ودخلةُ أخي ، رحمه الله ، من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خَدَمِنا ، ممّن يخفُّ موضعُهُ ويلطفُ محلّه ، فلبثنَ صدراً من النهار ثم تنقَّلْنَ إلى قَصَبَةٍ كانت في دارنا مشرفةٍ على بستان الدار ويُطَّلَعُ منها على جميع قرطبةَ وفُحُوصها ، مفتحةِ الأبواب ؛ فصرن ينظرن من خلال الشراجيب[3] وأنا بينهنَّ ، فإنّي لأذكرُ أنّي كنتُ أقصدُ نحو الباب الذي هي فيه أُنساً بقربها متعرّضاً للدنوّ منها ، فما هو إلاّ أن تراني في جوارها فتترك ذلك البابَ وتقصد غيره في لطف الحركة ، فأتعمدُ أنا القصدَ إلى الباب صارتْ إليه فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره ؛ وكانت قد علمتْ كَلَفي بها ولم يشعر سائرُ النسوانِ بما نحن فيه ، لأنهنَّ كنَّ عدداً كثيراً ، وإذ كلهن ينتقلن من باب إلى باب لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يُطَّلَعُ من غيرها عليها ، واعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافةِ[4] مُدلجٍ[5] في الآثار ، ثم نزلن إلى البستان فرغبَ عجائزنا وكرائمنا إلى سيِّدتها في سماع غنائها ، فأمَرَتْها فأخذت العودَ وسوَّته بخَفَر وخجلٍ لا عهدَ لي بمثله ،

---

1 في ت : بمصطنع . والصواب : المَصْنعة . والمصنَعة الدَّعوة يدعى إليها الإخوان .

2 في ت : يصطنع ، واصْطَنع اتَّخذها .

3 الشَّرْجب : الطويل والفرس الكريم ، الشَّرْجُبان ويضمّ شجرة م كالباذنجان نبتةً وثمرَةً يدبغ بها .

4 والقائف من يعرف الآثار ج قافة وقاف أثره : تَبِعه .

5 وأبو مُدْلج : القُنْفذ وبنو مُدْلج قبيلة من كِنانَة .

وإن الشيءَ يتضاعف حسنُهُ في عين مستحسنه ، ثم اندفعتْ تغنّي بأبياتِ العبّاسِ بن الأَحْنَف ، حيث يقول : [من البسيط]

إنّي طربتُ إلى شمسٍ إذا طَلَعَتْ ... كانت مشارقها جوفَ المقاصيرِ[1]
شَمْسٌ مُمَثَّلَةٌ في خَلْقِ جاريةٍ ... كأنَّ أعطافَها طيُّ الطَّوامِيْرِ[2]
ليست من الإنس إلاّ في مناسَبَةٍ ... ولا من الجنِّ إلاّ في التَّصاويرِ
فالجسم من لؤلؤ والشَّعْرُ من ظُلَمٍ ... والنَّشْرُ من مَسْكَةٍ والوجه من نُوْرِ[3]
كأنّها حين تخطو في مجاسِدِها ... تخطو على البَيْضِ أو خضرِ القواريرِ[4]

فلَعَمْري لكان المِضرابَ إنما يقعُ على قلبي ، وما نسيتُ ذلك اليومَ ولا أنساهُ إلى يوم مفارقتي الدنيا ، وهذا أكثرُ ما وصلتُ إليه من التمكّن من رؤيتها وسماع كلامها ؛ وفي ذلك أقول : [من الخفيف]

لا تلمها على النِّفارِ ومَنعِ الـ ... ـوَصلِ ما ذاكُ لها بنكيرِ
هل يكونُ الهلالُ غيرَ بعيدٍ ... أو يكونُ الغزالُ غيرَ نفورِ

وأقول : [من الوافر]

منعتِ جمالَ وجهك مُقلتيّا ... ولفظُكِ قد ضننتِ به عَليّا
أراكِ نذرتِ للرحمن صَوماً ... فلستِ تكلّمين اليوم حيّا
وقد غنّيتِ للعبّاس شعراً ... هنيئاً ذا لعبّاسٍ هنيّا
فلو يلقاك عبّاسٌ لأضحى ... لفوزٍ قالياً وبِكُمْ شجيّا

ثم انتقل أبي رحمه الله من دُورِنا المحدَثَةِ بالجانب الشرقي من قرطبة في رَبَضِ الزاهرة إلى دورنا القديمة في الجانب الغربيّ من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمدٍ المهديّ بالخلافة . وانتقلت أنا بانتقاله ، وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، ولم تنتقلْ هي بانتقالنا لأمورٍ أوجبتْ ذلك . ثم شُغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام

---

1 في ت : إذا غربت كانت مغاربها . والصواب ما أثبتنا نقلاً عن الدّيوان ص 136 (طبعة دار صادر) .
2 في ت : اعطافها والصواب : كشحها والكشح : الخاصرة . والطّامور والطومار الصحيفة ج طوامير .
3 في ت : فالوجه جوهرة والجسم عبهرةٌ ... والرّيح عنبرةٌ والكُلُّ من نورِ
وما أثبتنا نقلاً عن الدّيوان ص 136 (طبعة دار صادر) .
4 المجسد : وثوب مُجْسَدٌ مصبوغ بالزّعْفران وكَمِيْرد ثوب يلي الجَسَد . والقوارير الواحدة قارورة إناء يجعل فيه الشراب .

المؤيد بالنَّكَباتِ وباعتداءِ أرباب دولته ، وامتُحِنَّا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار ، وأَرْزَمَتِ[1] الفتنة وأَلقَتْ باعَها وعَمَّتِ الناسَ وخصَّتنا ، إلى أن توفِّي أبي الوزير رحمه الله ونحن في هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القِعدة عام اثنتين وأربعمائة ، واتصلت بنا تلك الحالُ بعده إلى أن كانت عندنا جنازةٌ لبعض أهلنا فرأيتها ـ وقد ارتفعت الواعية[2] ـ قائمةً في المأتم وَسْطَ النساء في جملةِ البواكي والنوادب ، فلقد أثارت وجداً دفيناً وحرَّكَتْ ساكناً ، وذكَّرتني عهداً قديماً ، وحبّاً تليداً ، ودهراً ماضياً ، وزمناً عافياً ، وشهوراً خوالي ، وأخباراً تواليَ ، ودهوراً فواني ، وأيّاماً قد ذهبت ، وآثاراً قد دُثِرَتْ ، وجدَّدَتْ أحزاني ، وهيَّجَتْ بلابلي ، على أنِّي كنتُ في ذلك النهار مُرزءاً[3] مصاباً من وجوه ، وما كنتُ نسيتُ ، ولكن زاد الشجى وتوقَّدَت اللوعةُ وتأكَّدَ الحزنُ وتضاعفَ الأسف ، واستجلب الوجدُ ما كان منه كامناً فلبَّاه مجيباً ، فقلت قطعة منها : [من الطويل]

يبكّي لِمَيْتٍ مات وهو مُكرَّمٌ ... ولَلْحَيُّ أَوْلى بالدّموعِ الذوارفِ
فيا عجباً من آسِفٍ لامرىءٍ ثوى ... ومـا هو للمقْتولِ ظلماً بآسفِ

ثم ضرب الدهرُ ضَرَبانَهُ[4] وأُجْلينا عن منازلنا ، وتغلَّب علينا جندُ البربر ، فخرجتُ عن قرطبةَ أوّلَ المُحَرَّم سنة أربع وأربعمائة ، وغابت عن بصري بعد تلك الرؤية الواحدةِ ستّةَ أعوامٍ وأكثر ، ثم دخلتُ قرطبة في شوال سنة تسعٍ وأربعمائة ، فنزلتُ على بعضِ نسائنا فرأيتها هنالك ، وما كدت أن أميزها حتى قيل لي هذه فلانة ؛ وقد تغير أكثر محاسنها وذهبت نضارتها ، وفنيتْ تلك البهجةُ وغاض ذلك الماءُ الذي كان يُرى كالسيف الصَّقيل والمرآة الهندية ، وذبل ذلك النُّوار الذي كان البصرُ يقصدُ نحوه مُنْبهراً ويرتاد فيه متخيِّراً وينصرف عنه متخيِّراً ، فلم يبق إلاّ البعضُ المنبىءُ عن الكلِّ ، والخبر المخبر عن الجميع ، وذلك لِقِلَّةِ اهتبالها[5] بنفسها وعدمها الصيانةَ التي كانت غُذِيَتْ بها أيّامَ دولتنا وامتدادِ ظلّنا ولتبذُّلها في الخروج فيما لا بدَّ لها منه ممّا كانت تُصانُ وترفع عنه قبل ذلك ؛ وإنما النساءُ رياحين متى لم تُتعاهدْ نقصت ، وبُنيَّةً متى لم يُهْتَبَلْ بها استهدمت ؛ ولذلك قال من قال : إن حسن الرجالِ أصدقُ صدقاً وأثبتُ أصلاً وأعتقُ جَوْدَةً لصبره على ما لو لقي بعضَه وجوهُ النساءِ لتغيّرتْ أشدَّ التغيير ، مثل الهجير والسموم

---

1 وأرزم الرَّعد اشتدّ صوته أو صوّت غير شديد .
2 الوَعْي : الجلبة .
3 المرزئة ج ارزاء ورزايا والمُرَزَّؤون بالتشديد الكرماء وقوم مات خيارهم .
4 وضرب في الأرض ضرباً وضرباناً خرج تاجراً أو غازياً أو أسرع أو ذهب .
5 واهتبل لأهله : تكسَّب .